المنهج التاريخي ....(المحاضرة الأولى)

تعريف المنهج التاريخي

هو تتبع تطور الظاهرة اللغوية أو اللغة أو اللغات من مرحلة تاريخية إلى مرحلة أخرى عبر الزمن، فيقوم الباحث بوصف المراحل التي مرت بها هذه اللغة، والعمليات المرتبطة بها؛ لأن كلّ لغة وليدةٌ للتطور التاريخي الذي تمر به، هذا التطور تدخل فيه مؤثرات عديدة متباينة؛ لذلك كانت اللغة أكثر من أي ظاهرة اجتماعية أخرى قابلة للتفسير بفضل المنهج التاريخي؛ ويطلق الباحثون على هذا النوع من الدراسة "المنهج التاريخي".

وميدان البحث التاريخي يدور حول تطور اللغة الواحدة عبر القرون، فيدرس التطورات التي مرت بها من الناحية الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، ونتائج هذا المنهج تعتمد في المقام الأول على المعطيات والثمار التي يمدنا بها المنهج الوصفي؛ لأن المنهج الوصفي يقدّم نتائج دراسة اللغة في فترة زمنية محددة، فيقوم رواد المنهج التاريخي بمتابعة الظاهرة وملاحظة تطوّرها عبر العصور، في محاولة جادة لكشف ملامح التطور والتغير، فالمنهج التاريخي يعتبر مجموعة النتائج المتتابعة على مر العصور للمنهج الوصفي، أي في سلسلة تاريخية متصلة الحلقات.

على سبيل المثال إذا أردنا تتبع ظاهرة لغوية عبر العصور فلابد من أن نعتمد في رصدنا للتغيرات على ما تم وصفه للظاهرة في كل عصر على حدة، وهذا ما يقدمه لنا المنهج الوصفي الذي يقتصر في مساره على وقت محدد، ثم ننتقل من هذه الفترة الزمنية إلى التي تليها معتمدين على المعلومات التي يقدمها لنا المنهج الوصفي، وهكذا حتى ننتهي للعصر الذي حددناه لدراسة الظاهرة.

فالدراسة التاريخية من دون المنهج الوصفي لا تكتمل ولا تَفِي بوعودها، فبين المنهج الوصفي والمنهج التاريخي علاقة وثيقة، وهناك ملامح بين المنهجين، سنحاول توضيح هذه الملامح – الفروق – بين المنهجين:

الفرق بين المنهج التاريخي والمنهج الوصفي

الوظيفة: المنهج الوصفي لا يتجاوز الوصف، أي التشخيص للحالة اللغوية دون زيادة، فيصف الظاهرة كما هي دون تدخل من الباحث؛ لأنه يريد أن يصل إلى الحالة الفعلية للظاهرة اللغوية التي يقوم بدراستها، فلا يجوز للباحث أن يضيف شيئًا أو ينقص شيئًا من هذا، أي وصف ما هو كائن وليس ما ينبغي أن يكون، أما المنهج التاريخي فيعتمد على ملاحظة التطور ومتابعة التغيير، مع إظهار العلل واستنتاج الأسباب التي أدت إلى هذا التطور وهذا التغير.

المعالجة: المنهج الوصفي وسيلة لدراسة الظاهرة اللغوية دراسة أفقية، أي في فترة زمنية معيّنة، كدراسة الظاهرة اللغوية في العصر الجاهلي أو في العصر الإسلامي، والباحث الوصفي لا يتخطى هذه المرحلة، فهناك تحديد للزمن وتحديد للمكان وتحديد للبيئة واختيار العينة وغير ذلك كما ذكر سابقا.

أما المنهج التاريخي فهو وسيلة لدراسة الظاهرة اللغوية دراسة رأسية على مستوى عصرين فأكثر، حتى يتابع مظاهر التطور، فالباحث التاريخي يعتمد على المكتوب المرصود الموصوف سلفا، بعكس الباحث الوصفي معظم الدراسة فيه تقوم على اللغات الحية المنطوقة.

ميدان الدراسة: المنهج الوصفي يمتد في معالجته في البحث إلى ميدان المنطوق، فيمكن أن يقدِّم وصفًا للغة منطوقة حيةٍ أصحابها قائمون يستمع إليهم، ويمكن أن يقدم الباحث الوصفي وصفًا تفصيلياً للغة مكتوبة؛ إذن الدراسة الوصفية يصلح تطبيقها على الوثائق وعلى الدراسة الميدانية المنطوقة في آن واحد، فَدِرَاسة الوثائق أو اللغة المكتوبة في دراسة وصفية

تعتمد على المصادر المكتوبة سواء كانت هذه المصادر مخطوطة أو مطبوعة، كما يعتمد المنهج الوصفي على البحث الميداني في تسجيل اللغة من أفواه أصحابها المتكلمين الذين يريد دراسة واقعهم اللغوي.

أما المنهج التاريخي فيعكف على دراسة المكتوب، في محاولة لاستنباط ملامح التطور والتغير من خلال هذه النصوص المدوّنة على مر العصور، والوقوف على الأحداث التاريخية التي مرت بها اللغة، وما أدت إليه هذه الأحداث التاريخية من نتائج في الواقع اللغوي.

الطبيعة: إن مهمة المنهج الوصفي تنحصر في وصف اللغة كما هي، فيقدّم وصفًا تفصيليًّا للغة كما يراها ويرصدها في الواقع لا يغيّر شيئا من الواقع اللغوي، أما المنهج التاريخي فيتّسم بالحركة والتنقل والتتابع؛ لأنه ينتقل من عصر إلى عصر، وينتقل من بيئة إلى بيئة؛ لأن بيئة اللغة ليست بيئة واحدة بل متعددة، والمنهج التاريخي يرصد التغيرات التي مرَّت بها اللغة على مدار العصور المختلفة، ويقدم لنا دراسة تاريخية عن تطور كل المستويات الصوتية والصرفية والتركيبة النحوية والدلالية في اللغة المدروسة.